

ناصر قنديل

بعد الصباحات للشام وياسمينها، والمقاومة وبواسلها، ورمضان والصيام، يبدأ حديث الجمعة هذا الأسبوع مع تحيةٍ لسوريةٍ و مسارها في تغيير المستحيل. وبعد «قالت له» والكلام المباح عن الحبِّ والانتظار والأقوال والأفعال، إضافة إلى مشاركة رانيا الصوص، تطالعنا «رياضيات في الكلام» مع تبديل الأحرف والكلمات فتتغيّر المعاني والمعادلات، لنختم بمشراكة سحر عبد الخالق.

أنشودة السلاح

قال الصباح: يصطفُ دعاةَ الإسلام على شمال سورية وجنوبها كذبابٍ على ذؤابة فرس جسور، يظنّون أنها لحظةٌ مؤاتيةٌ لمُدّ الجسور. وبعدها توهموا أنّ سقوط المدن سيتمُّ كما سقطت جسر الشغور، جاءت مدرسة حلب من الخالدية والراشدين تقول لا تتوهموا أنكم باقون في صلاح الدين. وقالت الشهباء إنَّها تعرفهم بالوجوه والأسماء، وإنَّها لهم بالمرصاد مات من مات وعاد من عاد. فلكل هجوم مواجهة، والويل لمن يقف في الواجبة. وكان الجيش والشعب صفًا بصفٍ وكتفا بكتف. وكانت النساء لأكثر من الزغرودة بالرصاص كتكبّ الأنشودة، وكان النصر في الصباح وقال كلمته السّلاح. وفي السويداء حيث بضاعتهم نفاق للحياء وسطوة الجلال، وكذبة جنبلاط والرهبان على اليأس والتعب والإحباط. فقد كانت الوف مؤلفة تهبّ للتطوُّع ترفض أن تكون مصنّفة وترفض التوزُّع. فالكل لسورية وجيشها والكل لحم أكثافه من خيرات عيشها. عدا العزة والكرامة والنخوة والشهامة والباقي معروف من هم بنو معروف. وقفة رجل واحد على كلمة رجل واحد، ليكِّب سورية إلى السلاح وتمتلاً بالرجال كل ساح. وترتفع الحصون ويسقط المعتوثون... سورية إلى السلاح ينتظرن... وينتصر الصباح.

بين التضحيات والحسابات

قال الصباح: التمييز بين المصلحات نصف خيرة الحياة في السياسة والعمل والحبِّ والحرب. فالزهد بفكرة أو شخص أو قضية غير البغض والحقد، وكذلك الألم لفشل فكرة أو خسارة شخص أو قضية. غير الحسرة والندم، كما التنتسك للشخص أو الفكرة غير الاهتمام والرغبة. والنفوس الصافية هي التي تتقن التمييز بقياس من أعطت وماذا وبأيّ حساب. وإن فشلت أحسَّت بالألم لا بالندم. وإن كسبت مضت بالتنتسك لا بالرغبة. وتضع مقام القضايا والأشخاص مقام ما يعطون لا ما يقولون أو يُقال عنهم. هذه فضيلة الشهداء أنهم يهبون بلا حساب أغلى ما يقيم له الآخرون الحساب. وإن أخطأ الغير في حساب شهادتهم يحسون بالألم لا بالندم. وإن انتصر الآخرون لدمهم تنتسكوا من محراب شهادتهم. أضعف الناس من ينظر إلى التضحيات الكبيرة كضرورات حرب تتوَّن في سجلات الخسائر، وينظر إلى مردود الأمور من منظار ما تحقّق من حساباته، وهذا صحيح في كلِّ مقام ومقال... في الحياة خيارات لا أقدار فقط.

طمأنينة

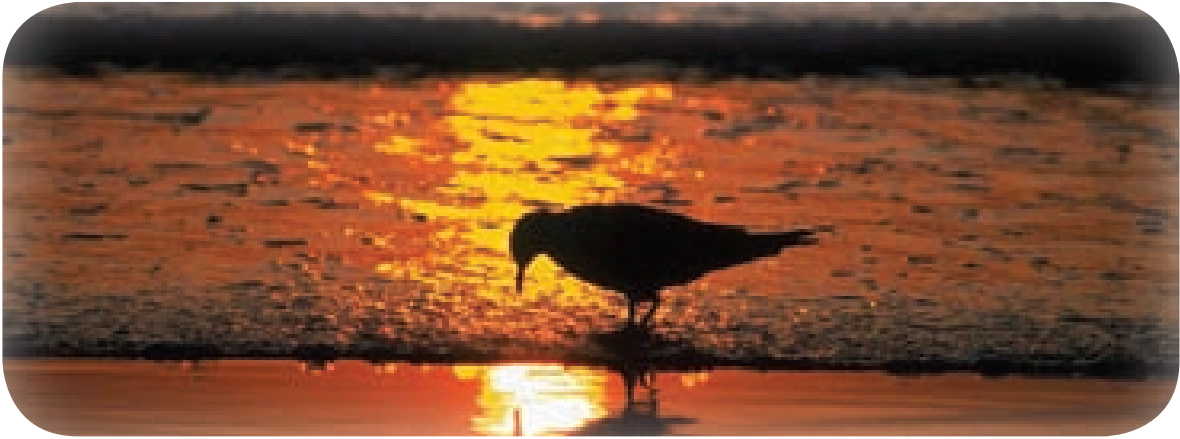
قال الصباح: طوبى للذَّين لا تزال أسبابهم في ملاقة الضوء أو الابتعاد عنه لا تتغيّر. يسهرون لها وينامون لأجل أن تأتيهم في أحلامهم. فلا تشعر أبدانهم برغبة النوم أو تمتنع عن الفجر كسلا، ولا يسهرون الصبح قلقا فهم لا يتعبون ولا يقلقون، مطمئنون لما في قلوبهم منذ اللحظة الأولى حتى انقراط النفس. لا تتغيّر بوصلتهم مهما زادت الشدائد وتكاثرت المغريات. لأن الخيارات عندهم أكبر من أن يمحوها أو صافًا يرونها لغيرها بعد حين. لهذا تبارك الفلاح والجندي والمقاوم، وارتنى مقام الشهداء. ولذلك وُجد الشعر للعشاق ليختبروا خياراتهم وقدرتهم على الثبات. ويعرف كل قيس إن كان عشقه ليلي أم شبّه له، وتكتشف ليلي إن كان قيسا من تنأجي الضوء له. أمّا الفلاح والجندي والمقاوم فيدخلونها آمنين بلا امتحانات دخول، لأن انتظارات المطر والرصاص والموت لا تحتاج إلى إثبات... ما أجمل رائحة تراب الشام تحت وقع حبات الندى على أغصان الياسمين... إيقاع الغنائ بين أودية الجغرافيا وعشق السنين.

خلود الياسمين

قال الصباح: واهمون الذين أطلقوا صواريخ حقدهم على الشام إن تخيلوا أنها ترعيبها. فقد طوت الشام تحت ترابها آلاف سنين الغزوات والحملات، واحتضنت دماها يامسيتها بصمّ على بياضه على رغم كل السواد... هذا النوع من الشعوب كمثله من القلوب، بياضه بياض أزليٍّ مهما أسود، ما حوله يشعُّ نوراً، ومهما استهان به وتعامى عن حقيقة داخله العابرون مهما طالت إقامتهم، والمدّموع منها تفسلت روايتهم. فهو كيباض جبل الشيخ شامخ لا تهزّه العواتي. ويبقى الكبير كبيرا ولا يكبر الصغار مهما تظاهروا بادّعاءاتهم بالحلّة فالكلمة لما هو أت.

البناء

حديث الجمعة



قالت له

● قالت له: أنت لا تحبّني بمقدار حبّي لك، على رغم اعترافي بأنك تهتمّ لأمرَي أكثر من اهتمامي بأمورك. لكن السبب يكمن في القدرات لا الغربة. فأنت أقدر على الفعل وأنا لا أملك إلا القول. فلا تنظلم كلماتي بقوة أفعالك.

فقال لها: تريحين جولة الأقوال وأربح حرب الأفعال، لأنك بقوة القول صرت تصممين أفعالا لا تحتاج إلى مقدرات، لكنّها تعبّر عن القدرة على القرارات. وأنت تواظبين على القول وأنا اواظب على الفعل. فما رأيك أن نتبادل؟ وأنا مستعدٌّ لأمنحك دفق قول لا ينضب في الحبِّ ومن القلب، وأن تمنحيني أفعالا تُؤكّد بقوة قراراتك معنى كلماتك.

فقالت: أنت تريد أن تذهب بالخصوصية التي من دونها يلغي الحبّ من نحن ويجعلنا أشباها منسوخة ويصير عبثًا بحياتنا، ومصائرنا بلا مسؤولية وبلا سؤال إنسانيٍّ مشروع عن الغد.

فقال: الحب عندي جنون التماهي، أما الحب الذي يحكمه عقل البحث عن الحدود ويرسم سيناريوات وخرائط طريق للوجود، وخططه للمسمح والممنوع، وخطابا عن المصير المفقود، فأظنه جدير بالاهتمام، وربما يكون الأجل. ولكلامك عنه وقع جميل، لذلك وإرادة تكسر المستحيل، وتجمع ما لا يجمع. لكنني أعتدّر لأنني أجهله، لأنني في الحبِّ شريك الخسائر لا شريك أرباح. والحب الجميل الذي تصفين يعجبني لأنه بوليصة تأمين في الحياة لا حادث سير قاتلا، فهو قادر على تحويل شرَاكة المصير والذوبان الأخير إلى أسهم شركة تنظلمها العقود... انتظريني هنا قليلا حتى أتعلم، وساعد.

● قالت له: الحبّ سعي أو مرحلة أو ذكريات؟

فقال: لكل حبّ صفةٌ من هذه، فقبل أن يصير الحب ذكريات، يكون حبّ آخر قد صار سعياً، فلا يعيشان معا إلا بعدما يصير أحدهما ذكريات، والثاني مرحلة. فقلت: ونحن أين؟

فقال: لكّل من الحببيين ساعة توقيت مختلفة.

فقلت: وساعتك؟

فقال: متأخرة عن ساعتك بحقية، فإن كنت معي سعياً إليّ فانا انتظار. وإن كنت مرحلة فانا سعي، وإن كنت ذكريات فانا مرحلة.

فقلت: وإن كنت أرثياكا؟

فقال: إذا أنا دعاء أن أكون غداً ذكريات جميلة.

فقلت: لكنت تبقى سعياً لا ينتهي.

فقال: السعي هنا للحفاظ على الذكريات. سعي وفاء وكلمة شرف، لا سعي الشوق والشغف. عندما نحبّ نجعل أخطاء من نحبّ وأثانيته كي نراه جميلاً. هكذا كنت وسابقي، وهكذا سيكون سعيك المقبل، وعندما نحفظ الذكريات ستقولين حسنا أننا توقفنا هنا، وأقول يبقى الجميل جميلاً.

● قالت له: تتحدّث عن عظمة الحبّ الذي يربطنا، وحجم ما نخزن من عاطفة تندفع بقوة نفوق شلالات نياغارا، وتدعني بأمور تفوق قدرة الخيال على التوقُّع، وتربط كل شيءٍ باستحقاقات ومواعيد. فهل تملأ الفراغ الفاصل بيني وبين حدودها بكلمات الحبّ التي تؤنّس وحشة الوقت وتحفظ القلب للدفاة الآتي ودفق الحنان؟ فقال لها: الأفضل أن تختبري صبرك فيتعمد الحبّ بيننا بفضيلة الانتظار المتعب إنما الجميل.

فقلت: وهل تعرف أنّ الوقت يتكفّل إذا خلا من وهج الحنان بقتل جمال المرأة وأنوئتها، ويحوّل نعومتها إلى شيوخوخة مبكرة؟ فهل تريدني أن أتلقى جمال ما تحفظه في قلبك لقادم الأيام، وفي غيبك لما يشبه الأحلام، وقد أصبحت كومةً من حطب، أو امرأة من خشب، أو قد نهش قلبي العتب، واشتعل في دواخلي اللهب؟ فقال: ستستعيدين كل البريق والوهج عندما يحين وقت الوصال، ويتدفّق علينا الخير والجمال.

فقلت وقد ضمّرت وتكوّرت: من يقدر على الأكثر يقدر على الأقل، وقد رضيت القليل فلا تحرمني نعمة الفرح في حاضري بوعد ما يخبئُ مستقبلي.

فقطع في عينيها وتمتم ما لم تفهم ومضى.

فقلت له وهي تحدّث نفسها: من يقدر على الكثير يقدر على القليل، ومن يبجل بالقليل لن يسعفه كرمه بالكثير. فالوعود والمواعيد مقتل الحبّ، وللحبّ عناوين عدة، إما الآن أو لا شيء. ومضت ترفع غرّة شعرها عن عينيها لتنظر إلى نور الشمس.

● قالت له: هل تنتظرنى عند مفترق طرق قريب، لأن عليّ إنهاء ما بدأته للتوّ. فقال لها: أخشى أن تكتشفي أنني أنا من يجب إنهاء، وتعودين بالاعتذار.

فقلت: أنا واثقة من العودة إليك، ولو تغيّرت بعض الشيء عليك.

فقال: وهل تتقين أنّ الحبّ سيعيدك؟ أم هو الوعد والالتزام؟

فقلت: الحب وعد والتزام.

فقال لها: سأنتظرك. لكنّ الحبّ سيثبت أقدامي لا الوعد الذي يسهل النكوث فليلعبها مفتوحة وسيروي كيف يصير السيّد في

به إذا خفق لغيري أو لغيرك ما عندنا من قلب.

فقلت: المهم أنني عائدة وأنت ستنتظر.

فقال: المهم أن ثمة ما يشغلك عني، وأنت تتقين شغلي الشاغل. ومضى إلى الرصيف يمسك يده ويرسم عليها كلمات لا يفهمها، بلغة لا يعرفها. ومضت تلتفت نحوه بدمعة وهو لا يعلم بعد إلى متى عليه أن يوقن رحيلها، ويحزم كفه ويمشي.

عودةٌ وعهدٌ

على درج ذلك البيت العتيق، وجد نفسه، جازأً خواتمه الثقيلة، خلف ذلك الشعور الغريب، وكانّه يخشى ما ينتظر أن يراه.

ما اعتى شوقه والحنين!

ها قد وصل! وكانه لا يدرى. تسمرّت قدماه، وفي المكان ضاعت عيناه، وتشتّتت روحه بين حزنٍ غاضب، وفرحٍ كاذب؛ فرح العودة؟ واتي عودة؟ كل شيءٍ يباب، وحده نعيق الغراب يملا داخله، فيتناثر صمغته الموحش، كلمات هنا وهناك، يختلط صداها الكئيب بعبير تلك الياسمينّة الذابلة... «ما زالت كما عبرتها، تسابق عطرها، وتحاول بلوغ النافذة، ها هي تقترب منها أكثر. لكنها هذه المرة غيرها قبل ستة!».

صوّر وصور مزلّ في باله... فالدار شبه دار، والنافذة سوداء مشرّعة، إنما غيّاُ وانتظار، وفي الفناء بعض رسوم وكلمات شبه ممحوة، تحزّت من عليه زرقاء، ومن خلف دموعه المحترقة، تميّزت إحدى الرسومات، انحنى، تناولها، فإذ بأشكال لم تستطع النار التهامها؛ خوذة جنديٍ مقاوم، شمس، بنديقية، وعصن زيتون تساقطت وريقاته إلا واحدة، أما الكلمات فأخذ يجمعها، وإذا به يقرأ: «حين يتكلم الأبطال، يخرس الجبناء، والوطن الذي تصنعه دماء الشرفاء، تتعزّى فيه الخيانة ويُفحّص الرياء؛ أحبيبك حراً، وفي رحاب الحرية، تنتظر اللقاء....».

سحر عبد الخالق

صباح الخير لطريق سورية الطويل
فكّل حروبها في مسار تغيير المستحيل
هي سورية التي غيّرَت مسار حروب الفرنجة
إلى حطين
وجعلت كلّ حشود الغرب تبتدئ وقرارها
يستكين
وتعيد القدس للعروية مجدها
وفي الحرب كتعب ردها
وهي سورية التي في اليرموك حسمت للإسلام الفتوحات
وأحكمت لدولته السيادة وترسيم المعادلات
فصار ممكنا لسورية أيضا فتح الأندلس والصين
وأن يكون لها المجد من المشرق للمغرب بالدولة والدين
ولسورية كان السبقُ بثورات العرب في مطلع القرن العشرين
فسميت برقع العلم في دمشق بالذؤبرة العربية الكبرى
وانتهى بها حكم بني عثمان ووُري في الثرى
ومنها حروب الاستقلال على الفرنسيين وإرادة النوار
من يوسف العظمة وسلطان باشا الأطرش
وهناتو وصالح العلي وحرب الغوار

● المقارنة والقياس أصل العقل، والتقدّم قضية الحياة. ومَنْ رأبته يغادر محطة إلى أخرى بإرادته ومشيتّه، ويلاقي الانتقال بفرح، تمعّن بمحطة ما قبل وما بعد، وتعرّف إلى آلة قياسه ومعياره من المقارنة والقياس، تعرف من هو وكيف يفكر. ومهما قلت إنك تعرف، ستكتشف أنك لا تعرف. لكن إياك أن تُصدر الأحكام بالصحّ والخطأ، إنمل قلّ صرت أعرف أكثر.

● الطريق إلى الحقيقة ليست ما نراه، بل ما نحن عليه. بينما باب السعادة ما نراه لا ما نحن عليه. والتمسك بالقيم مقياسه ليس إزاء الذات إنما إزاء الغير، وقياس لمن نستطيع منح الأفضل لمن يستحق؟ أم للأقرب.

● كلّما صار الشوك أشدّ كثافة، يعني أننا نقترب من عنق الوردة. مقياس الاقتراب من الفرع القلق، ومقياس الاقتراب من النصر التصعيد، و«اشدّي أزمّة تنفرجي.».